أبو ماضي : شاعر ذو رسالة

بقلم الدكتور أمجد الطرابلسي

الشعراء حقا عظماء حقا . ولا حاجة بالعظيم اذا مات الى ان نبكيه بدموعنا فهو اكبر من دموعنا ، ولا الى ان نفديه بحياتنا فهو في موته أحيا منا في حياتنا ، بل لعله في موته أحيا منه في حياته نفسه .

وانما يبكى الاموات ... وانما يبكى ملايين الملايين من البشر الذين ماتوا وما زالوا يموتون كل يوم ، فكانهم — وقد اسدل الستار — لم يعيشوا يوما واحدا . هؤلاء هم الذين يستحقون الرثاء والبكاء لانهم يموتون كل الموت .

قبل بضع سنوات رعيت يا سيدي الرئيس (*) حفلة تكريم اقيمت لابي ماضي في هذا البلد . وها انت ذا اليوم ترعى ذكرى تكريمه . فأي فارق بين المحفلين ؟ لقد غاب عنا شخص المحتفى به ، وهذا كل ما في الامر . اما مجده فلربما كان اليوم اشد انبلاجا منه بالامس ، ولربما اصبح غدا اشد انبلاجا منه اليوم . ان الشخص العابر ... الشخص الضئيل المتداعي .. الشخص الذي تتجمع فيه كل معاني الفناء والتراب والدود ... هذا الشخص هو الذي غاب عن ابصارنا . وما اهون هذا الطين الذي ربما (نسي ساعة انه طين حقير فصال تيها وعربد) كما يقول ابو ماضي ، ما اهونه امام شعلة العبقرية التي لا تنطفيء!

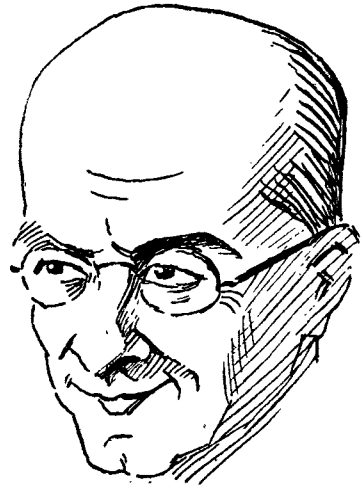

اجل ، ان حياة العظيم الحق لتغدو اشد توهجا واسنى جوهرا بعد ان تجرد من معاني فناء الطين .

وانما يكون الانسان عظيما حقا اذا اعتقد ان لحياته معنى . ولا يكون للحياة معنى الا اذا كانت رسالة تؤدى . أما اولئك الذين يحيون في يومهم ليومهم ولحياتهم الترابية وحدها ، ثم لا يجدون لحياتهم معنى الرسالة ولا روح الرسالة ولا حماسة الرسالة ، فهم اموات حتى في حياتهم .

ولهذا كان ابو ماضي انسانا وشاعرا عظيما حين وجد لحياته ولفنه معنى الرسالة . أليس هو القائل :

انما نحن معشر الشعراء يتجلى سر النبوة فينا

ان النبوة لا يصطفى لها من هذا الخلق الا من طوي على سرها . وسر النبوة انما هو هذا الامتلاء الروحي الذي يغمر نفس النبي المترقب ، وهذا التجاوب العميق بينه وبين امال البشر اللاهث المترقب ، وهذا الاستعداد لتلقي الالهام وحمل الرسالة .

والشاعر العظيم انما هو من غمرت نفسه نفحة من هذا السر العجيب ، فأحس في اعماق وجدانه صوتا يهيب به دوما انه انسان ، وأن على نفسه وخلجات ضميره ان تتسع وتتسع حتى تتمثل آمال الناس وآلامهم وخلجات ضمائرهم جميعها ولو رزحت تحت العبء ، وأن عليه بعد ان يعبر عن كل اولئك تعبيرا يبلغ اسمى ما بث في هذه الحياة من قيم الجمال والخير .

ولقد كان ابو ماضي هذا الشاعر العظيم . كان يحمل بين جوانحه هذه الانسانية كلها بآلامها وآمالها وخلجات ضمائرها ، ثم لا يعنيه بعد ذلك ان ينوء به الحمل ما دام يحس في اعماق اعماقه بنشوة الرسالة ، وجذوة الرسالة .

خلت اني في القفر اصبحت وحدي
فاذا الناس كلهم في ثيابي

★

ان حياة الانسان ليست ملكا لصاحبها وحده فيكون له الحق في ان يحياها انانية قاحلة عقيما . فمنذ وجد انسانان على وجه الارض عاش كل منهما كلا على الاخر يقتبس منه النور ويستمد النماء . ان حياة الفرد تمتص نسغها من الجماعة . وكل انسان ينطوي على نفسه فلا يقدم لمجتمعه من الحب المخصب كفاء ما يتلقاه هو من حب المجتمع انما هو غبي او لص او كلاهما معا : غبي لانه يقتل نفسه وهو يحسب انه يعصمها بهذا الانطواء ، ولص لانه يأخذ ولا يعطي .

والفن ايضا ليس ملكا لصاحبه فيكون له الحق في ان يجعله لفظا براقا ، او الهية سخيفة ، او وقفا على مدح فلان او فلان ممن يسمون الكبار ... ان الفن كالحياة وليد التعاطف المشترك ولا معنى لوجوده بدون هذا . وكل صاحب فن لا يجعل من فنه اخذا وعطاء وتجاوبا خصبا بينه وبين مواطنيه في وطنه ، بينه وبين الانسانية كلها في دنياه ، انما يحكم على فنه بالعقم ، ويكون شأنه شأن تلك (التينة الحمقاء) التي حدثنا ابو ماضي بحديثها ، تلك التينة التي ارادت ان تحبس عوارفها على نفسها ، وان تقدر ظلها على جسدها ، وأن يكون فيئها وثمرها لها وحدها لا للطير ولا للانسان . فماذا كان من امرها ؟

عاد الربيع الى الدنيا بموكبه
فازينت واكتست بالسندس الشجر
وظلت التينة الحمقاء عارية
كأنها وتد في الارض او حجر

(*) كلمة القيت في مهرجان الشاعر ايليا ابو ماضي في دمشق

احلام عذراء

كصغار حمام
تاهت في أفق البريه
كانت احلامي الورديه
والناس نيام
في ليلة صيف قمريه
وأنا في جلسة شباكي
أرنو لبعيد الافلاك
والوّنِ افراح العرس
وأغمغم : يا رب رجائي
فتنور بالبهجة نفسي
وأراه بعين الاحلام
كالبدر توشّح بغمام
يختال فتيّ الخطوات
والشال يرف على كتفه
وتدق طبول
فتعانق انغام الارغول
ويموج الدار
وتزغرد امي مبهوره
وترش الملح على الزوار
وأنا في الزفة عصفوره
طارت بجناح
وجناح نام على أسرار
ويقول الناس :
« ما أبرعه في «البرجاس »(١)
هو زين الفتية في القريه ..»
فتغار من القول « أمينه »
ويدق الطبل ويشجينا
ويدور الراقص في الحلبه
وعصاه تدور
كفؤادي في فرح الجلبه
وأنا اختال
في ثوب لماع أخضر
صنعته امي في« البندر »(٢)
ولدي سؤال
حيران يهوم في نفسي
فأغض الطرف .. فلا تظهر
في عيني افراح العرس
كصغار حمام
تاهت في أفق البريه
كانت احلامي الورديه
والناس نيام
في ليلة صيف قمريه

القاهرة — **كمال نشأت**

(١) رقص الخيل والفروسية
(٢) المدينة

ولم يطق صاحب البستان رؤيتها
فاجتثها ، فهوت في النار تستعر

*

ليس لي من هذا الذي اردده شيء ، وانما هي معان استوحيتها من شعر ابي ماضي نفسه . وقلما رأيت شاعرا معاصرا متشبعا برسالته الفنية ومؤمنا بأنه صاحب رسالة في هذه الحياة كأبي ماضي . وقلما رأيت شاعرا كأبي ماضي يلح في شعره على معنى ارسالة في حياة الفنان .

رسالة الشاعر في رأي ابي ماضيهي في ان يعطي ويخصب لا في ان يأخذ فيستأثر :

واذا سر نفوسا انها تحسن الاخذ فسري بالعطاء
واذا اعياك ان تعطي الغنى فافرحي انك تعطين الرجاء

الشاعر في رأي ابي ماضي :

هو من نراه سائرا فوق الثرى وكأن فوق فؤاده خطواته
هو من يعيش لغيره ويظنه منليس يفهمهيعيش لذاته

لم يكن ابو ماضي يرى ان في وسعه ان يكون شاعرا او شيئا يذكر اذا لم يصهر فنه في الحياة او لم يجعله تعبيرا حارا نابضا عن هذه الحياة التي يحس بها الناس جميعا في اعماق وجدانهم ثم لا يحسن التعبير عنها الا الشعراء الحقيقيون :

بني وطني ، من انا في الوجود وما هو شأني وما موضعي
انا انتم ، ان ضحكتم لامر ضحكت ، وأدمعكم أدمعي
ومطرب ارواحكم مطربي وموجع اكبادكم موجعي

الم يقل ابو ماضي مخاطبا قارئه في فاتحة (الخمائل):

أنا غيث فان وجدتك حقلا فأنا العشب والشجر
غير اني اذا لقيتك رملا لست شيئا ، حتى المطر
كن شعاعا يبين فيه كياني لا ظلاما ولا رغام
ولأعش في الشعاع بضع ثوان فهي خير من ألف عام

ان في هذه الابيات لشعورا عميقا بهذا التجاوب المبدع الذي يجب ان يتحقق كاملا بين الشاعر والمجتمع ، وبهذه الاشراقة التي لا بد ان تغمر بضوئها نفس الشاعر ونفوس قرائه معا ، والا كان فنه قشورا لفظية لا تمس قلبا ولا تهز كيانا . وما ابعدنا هنا يا سادتي عن اولئك الذين حسبوا او ما زالوا يحسبون ان الشعر الفاظ تنسق وأوزان توقع ، ثم لا شيء بعد ذلك من هذا الدفء ، وهذا الخفقان ، وهذا التجاوب ، وهذا الشمول :

لست مني ان حسبت الشعر الفاظا ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى ما كان منا

*

يتهيأ لكل منا ان يشهد في حياته كثيرا من الاحتفالات تقام لتكريم الاحياء او الاموات ، ثم لا يتمالك احيانا ان يتساءل عن معناها ومدى اصابتها الغرض . ولكنني اليوم واثق ان ذكرى ابي ماضي جديرة بتكريمكم لانه كان شاعرا عربيا وانسانيا ذا رسالة .

امجد الطرابلسي